(مِطفأة سَجائر)

ما بين مصحف يعلوه الغبار ويوم يمر تنقصه إحدى الصلوات، أصابع تحتضن لفائف التبغ، لسان يردد أسوأ الكلمات، قلبٌ ينزف دمًا حزنًا على صاحبه، دموع أمٌ على حال ابنها، لسان أب لم يكف عن الدعاء أن يعيد خالد لربه سالمًا، إبرة طائشة محملة بالسموم، إحساس وهمي بالسعادة وبقايا ضمير تتوسل صاحبها أن يفيق" اترك البحث عن التفاهات وابحث عني قليلًا، صدقني لن أجعلك تطيل البحث، سأقتفى أثرك لتجدني، أرجوك لا تثير شفقتي على نفسي في أنك لا تفعل "سحابة من الدخان سوداء ككل شيء في نظره وأفكاره تلاحقه والاختناق يداعب رئتيه، يُقال إن رائحة الموت تخنق الأنفاس، لكن ماذا عن نفاذ ذرات الهواء، التوقف عن التنفس رائحة ماذا!

يعلو صوته بصعوبة محاولًا الدفاع عن نفسه، ماذا عسايّ أن أفعل! تقبلت خيبتي وابتلعت حسرتي بهدوءٍ تام، لم يكن الانسحاب باختياري، أنا مُجبر على الصمت، كان عليَ أن أسدد ضريبة التجربة.

مخدر يسري في عروقه ويأس يسبح في فضائه، ضحكات صاخبة، وشهادة تخرج تحمل عار الامتياز، اطفئوا النيران ودعوا للأحزان حريتها، ألم، قهر، ظلم، حسرة، ذل، ندم، ذنوب، بُعد عن الله، ويجلس تختلط دموعه بضحكات مزرية تحمل طابع مخدر أثير.

مرآة ملقاة بإهمال وشبح وجهه يستعطفه "لا تحمل نفسك فوق طاقتها يا أنتَ، لا ذنبَ لنّا في فقرنا، فقط العار هو الغباء، لا تلق اللوم على نفسك الهزيلة، بل اشحذ غضبك نحوهم وصُبَّ عليهم جام غضبك، لدي حل يناسب عدالتهم المزيفة، انتابتني الحيرة، لماذا لا توجد طريقة أسهل للانتحار، كأن نقتلع الذاكرة مثلًا؟! ثم أدركت أخيرًا أن قتل الأشياء التي تعاود الحب، وتَحنَّ وتَشتاق، يعني الحياة لا الموت.

يلقي بمطفأة السجائر لتستقر بمنتصف المرآة، اصمت يا هذا، واختفي من وجهي للأبد.

يعاوده الصوت رغم تهشم وجهه في شظايا الزجاج "لا تستهِن الأمر يا صديقي، فهناك أناس ما زالت تؤمن بأن التَّخلي عن الحلم هو أسوأ أنواع الانتحار"

ينتفض من جلسته ويصرخ "دعني وشأني قد كنت مثلك ساذجًا غبيًا أو طفلًا نقيا كنت أظن بأنني حينما أتجاوز الثالثة والعشرين وأحمل تلك الورقة القابعة داخل الإطار الزجاجي بهذا الذي يسمي امتيازًا سيفتح لي باب الملك وأتربع علي أحد كراسي هيئة التدريس بالجامعة، والحبُّ الذي يتوج ليصنع حياة من السعادة والأمل، لكنّه الفراق أو المُسمى اللطيف للترك، التفسير المنطقي للغدر أو ضريبة من يحب بعمق. ظننتها أحلام بالصبر والجهد تتحقق، لكنني نسيت بأنَّ الأحلام تتبخر فور صدور مُنَّبه الواقع وحين تدق أجراس الواسطة والسُلطة التي تتغذى علي كسرة قلب قضى سعادته كاملة في رسم ذاك الحلم، بِئس القلب الذي يخشى سفاح الآمال، علمونا في صغرنا أن نكره الموت، أن

نخافه دون أن نعلم ما هو الخوف أو ماذا هناك بعده يخيف، كبرنا وتذوقنا الفراق وصرخنا من ألمه، لماذا لم يحذرونا منه....

صرخات طفلة، اصطدام سيارتين، تكسير زجاج، طبيب يهرع لغرفة العمليات، دموع، ابتهالات لله...

يستيقظ خالد في إحدى غرف المستشفيات، ترقد بجانبه زهور ذات السبع سنوات يُقال أنها متلازمة داون، لا يُهم... الأهم في الأمر أن تلك الزهرة قد فقدت قدميها نتيجة تصادم سيارة أبيها بسيارة خالد حين سكره، لا ليس هذا الأمر حقيقيًا يا صغيرتي لقد فقدتِ قدميكِ نتيجة تصادم أفكاري في وحل اليأس والإدمان، يلقي بنظره للوراء مُغمضًا عينيه "لا جدوى من الحزن، إذا وَجَبَ عليك الانتصار، فاهرب من البؤس أوّلًا".

أعدك يا صغيرتي بحق ذاك الكروموسوم الذي يفرق بين نقاء عالمك وظلم عالمنا، سأعود خالد المعلم الذي يحيا على ابتسامة طفل يَخط بقلمه، أهلًا بخير لا أعلمه، أهلا بعوض من الله أضعاف ما يعانق قلبي من فقد.

أعدك يا زهرتي، وأنا مدين لمزاجيتي وغرابة أطواري، كنت سأنهي رباطي بالعالم وأقطع شراييني في الصباح، الآن أنا أكثر رغبة في الحياة، بإمكاني أن أغني على الجرح المُتصل بألم في قلبي وأسخر من كل لحظة بكيت لأجل وهم.

إليها... تلك التي أمرّضتني بحبها، محاولاتي لإصلاح الفراق بيننا لا تنتهي، لا أتخلى مطلقًا عن حاجات قلبي، الذي انتهى.. أن أحاول

لأجلك.. ما الحل إذا كان ميل قلبي نحوك يفقدني توازني! لا أعرف الفشل مطلقًا.. وأن يحترق كبريائي هكذا! هو بشاعة الإعدام لو تعلمين، ما زلت كما عاهدتِني أحاول باستماتة.. لكن لأجلي..

إليه... ضميري الذي أيقظ أملي وروحي، أنا هنا خالد، ويَسكن قلبي الأمل لا الحب، إما أن توأد مشاعرك أو تقتلك هي. لم أكُن بخير، لكن الأهم أنني انتصرت في إخفاء هزائمي، تعثراتي تخصني وحدي تخلصت من يأس أسود، لحظات الفشل لا تليق بي.

إليه... خالد الذي أريده، تخلص من كل شيء يزعجك، تجاوز وحطم كل القيود، لا بأس أن تبدأ بقلبك، الأيام تشفي كل الجروح، الزمن طبيب قدير والنسيان شفاء عاجل ولا أحد يموت بالفراق.

يعاود سؤاله لنفسه، ما هي أسوأ الأحوال إذا رافقنا البؤس واستمر ما نحن عليه الآن؟!

ينظر لزهرة القابعة بجواره ويجيب بصمت، سنصل متأخرًا إلى وجهتنا، التوقف أو السقوط خارج تصورات سيرنا، بحزن أو سعادة سنصِّل، الفرق فقط في التوقيت، لكننا سنصل، أجزم بالسكون بعد كسر وأفتح لشدَّتِك بابًا يضُم خلايا عوضك.